مصر والشام منذ مئة عام

لو كان في العربية صحيفة اخبارية منذ مئة عام لرأينا في مطالعتها الآن لذة وفكاهة وفوائد جمة من مقابلة الماضي بالحاضر والبحث عن اسباب ما حدث من التقدم والتأخر في احوال البلاد السياسية والاجتماعية لكن صحف الاخبار حديثة عندنا والصحف الاوربية التي كانت تنشر حينئذٍ قلما تتكلم عن الشرق فالتفتنا الى ما لدينا من كتب التاريخ والرحلات العربية والافرنجية واقتطفنا منها النبذ التالية لما فيها من الدلالة على احوال مصر والشام منذ مئة عام اي سنة ١٨١٢!

وقد اخترنا تاريخ الامير حيدر لانهُ يذكر حوادث بلاد الشام بالاسهاب ولاسيما ما حدث منها في عهدهِ وتاريخ الجبرتي لانهُ يذكر حوادث القطر المصري بالاسهاب التام والانتقاد . واخترنا من كتب الاوربيين كتاب المستر باركر قنصل الانكليز في حلب ورحلة بركهرت الرحالة المشهور الذي قدم هذا القطر تلك السنة آتياً من بلاد الشام

قال الامير حيدر: — وفي هذه السنة اي سنة ١٨١٢ في شهر ايار منها (مايو) جاء البلاد جراد كثير من نواحي بلاد نابلس وغزة في السواحل البحرية من بلاد صفد الى طرابلس الشام وكان جيشاً عظيماً اذا انتشر حجب الشمس فهال الناس امرهُ وايقنوا بتلف الاغراس والغلال ففرض الامير بشير على جميع اهل بلادهِ ان يُحضِر كل رجل منهم نصف مد من بزر الجراد المدفون في الارض واقام على ذلك مباشرين في كل مكان يجمعون ذلك البزر ويحرقونهُ . فاخذت الناس تحرث الارض لاستخراج ذلك البزر واجتمع لهذا العمل كل من في البلاد من اقاصي الجبال الى اطراف السواحل فجمعوا منهُ ما ينيف على خمسين غرارة والباقي منهُ فسد قبل استيفاء جمعهِ وسعى في اراضي السواحل وكان كثيراً جداً . فاسرعان تبادر الناس اليهِ وتصنع لهُ حفراً تطردهُ اليها . وكان يرسل الامراء بني عمهِ واكابر اخوانهِ لمراقبة ذلك فاهملوا منهُ مالا يقدر . وغلب الباقي قبل استيفاء العمل فزحف الى حيث لا تحفر لهُ حفر في ارض صلبة فجمعوا لهُ اغصاناً يابسة و بلاناً وما اشبه مما يسهل حرقهُ وكسوها باغصان مورقة رخصة وصاروا يطردونهُ اليها وحالما تمتلئ منهُ يحرقونها فابادوا قسماً اعظم وما زالوا مواظبين على ابادتهِ وحرقهِ حتى ابادوهُ ولم يتضرر منهُ احد وكان ذلك التدبير اختراعاً من الامير بشير لم يسبقهُ اليهِ احد

وفيها امر الامير بشير بابطال الخفارة من جميع اطراف بلاده وكانت عادة قديمة مرسومة على خان الحسين وخان المديرج في الطرق الجبلية وعلى خان الناعمة وفرضة جونية وجبيل في الطرق البحرية واذن في ان تسير القوافل والتجار على جميع الطرق بالامان بدون ان يغرموا بشيء فكانت رحمة عظيمة للناس

وفيها في شهر رمضان حضرت الى مدينة بيروت عائلة سليمان باشا والي دمشق من القسطنطينية فارسل سليمان باشا نحو مئتي فارس لكي يسيروا معها الى دمشق وبلغ ذلك الامير بشيراً فارسل من خواصه نحو خمسين فارساً الى بيروت وامرهم بتقديم الذخائر في الطريق وبلغ الخبر سليمان باشا فسُرَّ به وارسل الى الامير بشير فروًا ثميناً من ملابسه وكتاباً يثني به عليه وهذه صورتهُ

افتخار الامراء الكرام كبير الكبراء الفخام الامير الاجل الامجد ولدنا الامير بشير الشهابي المحترم زيد مجدهُ . عب اهداء الدعوات الصافية والتسليمات الوافية انهُ قد طرق مسامعنا اهتمامكم باسداء الجميل والاكرام الى ولدنا البك المحترم حين وصوله الى مدينة بيروت فحصل لنا بذلك مسرَّة عظيمة لا زلتم اهل المعروف والكرامة . والآن واصلكم فرو مصور من ملابسنا نسر بلونهُ ان شاء الله بالهناء والسرور

وفي هذه السنة اطلق الامير بشير لحيتهُ فقال المعلم بطرس كرامة في ذلك شعراً

اي البشير الذي فاز الزمان بهِ ... قد ساد بالمجد والافضال واللُطَفِ
بدا عذار اليها في حسن طلعتهِ ... يحكي اساطير بسم الله في الصحفِ
الله عظمهُ قدراً وجملهُ ارخ وزينهُ في حلية الشرفِ

وخلاصة ما تقدم ان الامير بشيراً والي لبنان كان باذلاً جهدهُ في اسعاد الاهلين بمقاومة الآفات الطبيعية وازالة المغارم التي تعوق سبل التجارة وانهُ كان على تمام الصفاء مع والي دمشق وان الشعراء كانوا يتغنون بتهنئته ومدحه . وقد سمعنا من الذين كانوا في عهد الامير بشير ان الامان توطد في البلاد في ايامه واشتغل الناس بزراعاتهم وصناعاتهم وتجاراتهم فخفت حالهم وزادت ثروتهم فغرست اشجار التوت والزيتون في جهات كثيرة من الجبل وسواحله وانشئت المصابن والمصابغ وكثرت انوال النسج وراجت تجارة الحرير والقطن ولولا المغارم التي كان الامير يضطر الى استرضاء الدولة وولاتها بها لترك لبنان وما حولهُ من البلاد في حالة يحسد عليها

اما الجبرتي فوصف القطر المصري تلك السنة وصفاً يسرُّ الصديق ويسرُّ العدو قال ما خلاصتهُ : — «ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومئتين والف (وهي موافقة لسنة ١٨١٢) وفي عاشر محرم وصل كثير من العسكر الذين تخلفوا بالمويلح الى قبة النصر ودخلوا المدينة شيئاً فشيئاً وهم في اسوإ حال من الجوع وكآبة المنظر ودوابهم وجمالهم في غاية العي وقد سخط عليهم الباشا وامر ان لا يأتيهُ منهم احد ولا يراهُ كانهم كانوا قادرين على الانتصار وفرطوا في ذلك . وطفقوا يتهم بعضهم بعضاً فتقول الخيالة ان سبب هزيمتنا القرابة وتقول القرابة ان سبب هزيمتنا الخيالة» (كانت رحى الحرب دائرة في الحجاز حينئذٍ بين الجنود المصرية والوهابية) ونسب الجبرتي انكسار الجيوش المصرية حينئذٍ وتغلُّب الوهابيين عليهم الى تديُّن الوهابيين وقلة تدين الجنود المصرية . واسهب في ذلك اي اسهاب ولكن الجنود المصرية تغلبت على الوهابيين بعد ذلك فذكر خبر تغلبهم ولم ينسبهُ الى سبب ديني او غير ديني

« وفيهِ وصل جماعة من الانكليز وصحبتهم هدية الى الباشا وفيها طيور ببغاء هندية خضر الالوان ومعلونة وريالات فرانسه نقود معبأة في براميل وحديد وآلات وقد حضروا لاخذ الغلال . وفي كل يوم تساق المراكب المشحونة بالغلال حتى غلا سعرها وحصل للناس شدة بسبب ذلك » . واسهب في استصفاء محمد علي باشا لاموال الناس ووضعهِ الضرائب الفاحشة على الصادرات والواردات قال « انهُ كان يجلب الخطب الرومي على ذمتهِ ويبيعهُ للخطابين بما حدده من الثمن ويحمل في المراكب المختصة باجرة محدودة ايضاً ويأتي الى ديوان الكمرك ببولاق فيؤخذ كمركهُ الى ان استقرَّ سعر القنطار الواحد من الخطب ٣١٥ نصف فضة واجرة حملهِ من بولاق الى مصر ١٣ نصف فضة واجرة تكسيره مثل ذلك فيكون مجموع ثمنهِ ٣٤٠ نصف فضة القنطار وقد اشتراهُ قبل استيلاء هذه الدولة بثلاثين نصفاً واجرة حملهِ في المراكب عشرة انصاف واجرتهُ من بولاق الى مصر ٣ انصاف واجرة تكسيره كذلك فيكون مجموع ذلك ٤٦ نصفاً وكذلك فعل في سائر انواع الخشب والحديد والرصاص والقصدير وجميع المجلوبات

« وانتظم لهُ ملك بلاد الصعيد ولم يبقَ لهُ فيهِ منازع وقلَّد امارتهُ لابنهِ ابرهيم باشا ورسم بان تضبط جميع اطيان بلاد الصعيد وجعل على الفدان منها ثمانية ريالات ورسم بالحجر على جميع حصص الالتزام فلم يبقِ لاربابها شيئاً الا ما ندر واستولى على جميع مزارع الارز بالبحر الغربي والشرقي ورتب لها مباشرين وكتاباً يصرفون عليها من الكلف والنفاوي

والبهائم ويؤخذ ذلك جميعهُ من حساب القُرَض التي قررها على النواحي وعند استغلال الارز يوفونها بايديهم ويسعرونها بما يريدونهُ ويستوفون المصاريف ومعاليم القومة والباشرين المعين لهم وان فضل بعد ذلك شيء اعطوهُ للزارع او اخذوهُ منهُ واعطوهُ ورقة يحاسب بها في المستقبل. وفرض على كل دائرة من دوائر الارز خمسة اكياس في كل سنة خلاف المقرر والتدبير وعلى كل عود ثلاثة اكياس فاذا كان وقت الحصاد وزنوهُ شعيراً على اصحاب الدوائر والمباشر حتى اذا صلح وابيضَّ حسبوا كلفهُ من اصل المقرر عليهم فان زاد لهم شيء اعطوهم بهِ ورقة وحاسبوا بها من قابل وأبطل تعامل المزارعين مع التجار واستقر الحال على ان صار جميعهُ اصلاً وفرعاً لديوان الباشا ويباع الموجود على ذمتهِ لاهل الاقاليم والمتسببين وغيرهم »

واسهب الجبرتي ايضاً في تعرُّض محمد علي لرجال الضربخانة حيث كانت تسك النقود واستصفاء اموالهم ومزج النقود الفضية بالنحاس حتى صار دخلهُ من الضربخانة ١٥٠ كيس في الشهر. وفي احتكاره كل شيء حتى الخضر فانها صارت تزرع في اراضيهِ بشبرا وتباع للناس باثمان فاحشة فاضافوا اسمها اليهِ وصاروا يقولون كرنب الباشا ولفت الباشا وملوخية الباشا

قال ولغلاء المكوس كان درهم الحرير بنصف فضة فصار الآن بخمسة عشر نصفاً وثوب الالاجه الشامي الذي كان ثمنهُ ٢٠٠ نصف فضة صار ثمنهُ ٢٠٠٠ والعمل الرومي الذي كان يباع بستين نصفاً صار يباع بار بمائة نصف والذراع من الجوخ الذي كان يباع بمئة نصف فضة بلغ ثمنهُ الف نصف فضة

وخلاصة كلام المؤرخين السوري والمصري ان احوال بلاد الشام كانت منذ مئة سنة اصلح من احوال القطر المصري ولكن المؤرخ السوري قصر كلامهُ على لبنان وما يجاورهُ ولم يفصل ما كان يجري في الاماكن البعيدة كحلب وما يجاورها شمالاً وانكرك والشوبك وما يجاورها جنوباً وهذا اشار اليهِ بارکر وبركهرت كما سيجيء

اما المستر بارکر فكتب في حوادث سنة ١٨١٢ ما خلاصتهُ

ارسل الباب العالي جلال الدين باشا والياً على حلب هذه السنة فلما بلغ الانكشارية خبرهُ اخفوا ما عندهم من الحلي والامتعة النفيسة عند التجار الاوربيين وقناصل اليهود لانهم اوجسوا منهُ شرّاً . اما هو فاول شيء فعلهُ يوم وصولهِ انهُ طاف في الشوارع والسيف معهُ وقطع رؤوس خمسة من الباعة لكي يلتي رهبتهُ في النفوس ثم تظاهر بانهُ اطمأن بالاً ولم يعد يعبأ بامور الولاية بل صار يقضي اوقاتهُ في الصيد والنزهة الى ان امن

الانكشارية شرَّهُ وابطلوا الخمر منهُ . وكان لهُ قصر كبير خارج المدينة فاولم وليمة زوَّجاتهم ودعاهم اليها فلبى دعوتهُ واحد وعشرون منهم وذهبوا عزلاً من السلاح ومع كل واحد منهم سائس فرسهِ وحامل شبقهِ لا غير . فاستقبلهم في بستان قصره حيث اعدَّ لهم الوليمة وكان قد اقام الجنود في شرفات القصر فلم يستقر بهم المجلس حتى بادرهم الجنود باطلاق الرصاص فقتلوهم كلهم هم وحاملو شبقاتهم ولم ينجُ منهم احد

والحال ركب الوالي واتى المدينة قبل ان يصل الخبر الى بقية الانكشارية واستولى على القلعة التي كانوا فيها وقتل كل من وقع في يدهِ منهم وهرب الباقون تحت جنح الدجى وتشتتوا في البلاد

وكتب المستر بركر في ٢٠ اغسطس سنة ١٨١٢ عن السيدة استير ستنهوب التي كانت قد قدمت سورية يقول « ان الشريف فردرك نورث (الذي صار لورد نورث) الذي قام عندنا شهراً غادر حلب في ٢٢ يوليو وينتظر ان يكون الآن في دمشق ومن المرجح انهُ يلتقي بالسيدة الشهيرة استير ستنهوب وحاشيتها فان كل انبهة الشرق لا تقابل بالانبهة التي تسير بها هذه السيدة . وهي الآن في دير القمر او في مكان آخر من جبال الدروز تنتظر ان يبرد الهواء حتى تذهب الى بعلبك ودمشق وتدمر وحلب . وكل الذين يأتون حلب من فلسطين السنتهم تلهج بوصف موكبها فانهُ مثل موكب مشير كبير تركب جواداً مطهماً وتلبس لباس المماليك الفاخر وتلفُّ على رأسها شالاً اخضر اهداهُ اليها محمد علي باشا والي مصر وتضع فردين في قبق جوادها وتتقلد سيفاً مسقطاً بجادهُ من الحرير الاحمر وثيابها من المخمل القرمزي المقصب بالزرَّة من الذهب ويقال انها لما زارت الاماكن المقدسة في اورشليم اعطت القسوس خمسة آلاف غرش ولا تمسك انامِلها غير الذهب من النقود وتنفق بكرم حاتمي . حرسها من المماليك وفي حاشيتها ستون نفساً . واذا جاءت حلب كان لمقامها شأن عظيم ولقد صارت الامهات تؤرخ ولادة اولادهنَّ بسنة مجيئها فيقلن سنة مجيء السيدة الانكليزية او قبل مجيئها بسنة او بعد مجيئها بسنة »

وهذه السيدة ابنة ارن ستنهوب الثالث ولدت سنة ١٧٧٦ وامها ابنة وليم بت الوزير الشهير اقامت في بيت خالها وكان وزيراً ايضاً تقابل فيهِ وتحادثهم في اهم المواضيع السياسية والاجتماعية لانها كانت من الطبقة الاولى بين نساء عصرها علماً وذكاء . ولما توفي خالها قطعت لها الحكومة الانكليزية ١٢٠٠ جنيه في السنة اكراماً لذكراهُ اما هي فلما رأت انهُ لا بدَّ من انقطاع رجال السياسة عن زيارتها سئمت الاقامة في لندن وجاءت بلاد الشام

سنة ١٨١٠ وابتنت لها بيتاً في جبل لبنان فوق مدينة صيداء واقامت فيهِ الى ان ادركتها الوفاة سنة ١٨٣٩ . وعظم شأنها في لبنان والبلاد المجاورة لهُ حتى ان ابرهيم باشا طلب منها ان تبقى على الحياد لما دخل بلاد الشام . ويقال انها كانت في القامة والصوت والمنظر والمهابة مثل جدها وليم بيت الاول لورد شتام الوزير الشهير . وفي رسائلها وكتبها اصدق صورة لبلاد الشام في عهدها كما سنبينهُ في فرصة اخرى

وسمعت لادي ستنهوب عن المستر بركز وحسن ضيافتهِ وما لهُ من المقام السامي في حلب فكتبت اليهِ من دمشق ليقطع لها بعض التحاويل المالية مفضلة اياهُ على تجار الانكليز في بيروت وكتب اليهِ المستر بروس احد الرجال الذين معها في هذا الشأن فاجابهُ المستر بركز بما يأتي

حلب في ٤ سبتمبر سنة ١٨١٢

سيدي

تشرفت هذا الصباح بكتابك الكريم المؤرخ في ١١ اغسطس ومعهُ تحويل عليَّ باسم يوسف بوغوص عميل جبرائيل عجوري بسبع مئة التلك [1] فدفعتهُ لدى الاطلاع احتراماً لاسمك مع انهُ مؤجل لاحد عشر يوماً بعد الاطلاع . وارجو ان تثق انني ادفع كل التحاويل التي تحوّل بها عليَّ احتراماً لاسمك واسم السيدة الكريمة المسافرة معك . واني مستغرب من انك لم ترسل اليَّ تحويلاً على بنك في لندن حالما تأخر بيت بولاد في بيروت عن الدفع لك فكنت ارسل اليك القيمة الى حيث تريد في سورية . واني مرسل اليك الآن مكاتيب الى معارفي في دمشق وحمص وحماه وطرابلس وعكا حتى يقدموا لك وللادي ستنهوب كل ما تحتاجان اليهِ من النقود

وكتب الى لادي ستنهوب بهذا المعنى فارسلت اليهِ الجواب التالي

دمشق ١٠ سبتمبر ١٨١٢

سيدي

تناولت بالشكر كتابك الكريم المؤرخ في ٢٨ اغسطس واني مسرورة بتعرّفي برجل لهُ هذا المقام الرفيع في هذه البلاد . ولقد وجدت انهُ يستحيل عليَّ ان اطلب النقود من الاستانة فسأغتنم الفرصة واسحب عليك بعد زمن يسير . وانا اتعامل مع بنك كوتس وشركائهِ

(١) الاتلك يساوي ستة غروش

وسأضطر الآن الى نحو ١٠٠ جنيه . واني اشكرك على ما والحيتني به من الاخبار ومتى وصلت مكاتيبي التي تأخرت في ازمير بسبب الوباء اخبرك بما تأتيني به . واسمح لي ان اقول لك انك لو كنت تعلم ما اعلمهُ عن المستر برسفال[1] لما اسفت على قتله فانهُ كان السبب في اراقة اثمن دماء بلادهِ لغير علة ولتبديد اموالها بلا سبب معقول

وفي تلك الاثناء زار بركهرت الرحالة الشهير مدينة حلب ونزل ضيفاً على المستر باركر فاكرم مثواهُ وكان يدرس العربية فلما تمكن منها جاء القطر المصري للسياحة فيهِ وفي بلاد السودان وكان مجيئهُ اليهِ سنة ١٨١٢ وكتب قبل ذلك من دمشق الى اللجنة الانكليزية التي ارسلتهُ للسياحة يقول

دمشق في ٣٠ مايو سنة ١٩١٢

« كتبت اليكم اخيراً من حلب وارسلت اليكم مع كتابي صندوقاً كبيراً من كتب الخط العربية وقد منعني تواصل المطر من مغادرة حلب قبل ١٤ فبراير فوصلت الى طرابلس في الثالث من شهر مارس والى دمشق في ٢٢ منهُ وكنت راغباً في زيارة حوران مرةً اخرى لارى ما لم اتمكن من رؤيتهِ في رحلتي الاولى فخرجت من دمشق في ٢١ ابريل وعدت اليها في ٩ مايو وقد بعثت اليكم الآن بوصف ما شاهدتهُ في حوران وفي جانب مما كان يسمَّى قديماً بالمدن العشر

« ولا يحسن بي ان اغادر سورية من غير ان اكرر الشكر للمستر باركر قنصل الانكليز في حلب على ما لقيت منهُ من الاكرام وحسن الضيافة فقد شملني بجميلهِ . وهو من نوابغ الرجال في العقل والفضل وفي يدهِ الآن كل المهام الانكليزية في هذه البلاد ولهُ من الاسم وحسن السمعة ما يدلُّ على حكمة الذين اختاروهُ لهذا المنصب

« والراحة مستتبة الآن في بلاد الشام مع تغير الحكام المستمر فيها وقد اتى والٍ جديد الى حلب وهو يسعى الآن للايقاع بالانكشارية . وقبلما وصلت دمشق وردت الاخبار بعزل سليمان باشا من الولاية ولكن سُمح لهُ بالبقاء في عكاء ويشيع البعض ان محمد علي باشا والي مصر يقصد الحملة على سورية وقد تأخر عن ذلك حتى الآن بسبب حروبهِ مع الوهابية فاذا استتبَّ لهُ النصر في بلاد العرب حمل على بلاد الشام لانهُ كبير النفس عالي الهمة

---

(١) كان وزير انكلترا الاول والمحالة رجل تلك السنة

« ويرجى الآن ان يؤمَّن طريق الحج ولا سيما بعد ان اهتم الانكليز بتجارة البن بين مالطة والشرق فان نصف الذين يقصدون الحج تجار يذهبون الى مكة لابتياع بن مخا والبضائع الهندية اما في سورية فقد كثر البن الاميركي وقام مقام بن اليمن »

وكتب من القاهرة في ١٢ سبتمبر ١٩١٢ يقول

« كتبت اليكم اخيراً من دمشق في ٣٠ مايو ولكنني لم اخرج منها الاَّ في ١٨ يونيو ووصلت الى هنا في ٤ سبتمبر وانا ممتّع بالصحة ولكنني متعب جدًّا من السفر والحر . وخلاصة رحلتي اني اتيت من دمشق الى صفد ونزلت منها الى بحيرة طبرية وطفت في البلاد حولها وصعدت الى جبل طابور واقمت اياماً في الناصرة ولقيت فيها تجاراً من السلط فرافقتهم ونزلنا الى الغور قرب بيسان وقطعنا الاردن وسرنا على ضفته اليسرى الى ان وصلنا الى نهر الزرقاء (اليرموك) حيث يصب في الاردن ودرنا شمالاً وصعدنا في الجبال الشرقية التي كانت من البلقاء الى ان وصلنا السلط بعد سفر يومين من الناصرة . واهالي السلط مستقلُّون في امورهم الآن ليس للحكومة العثمانية شأن عندهم وليس في البلقاء الآن مكان آهل غير مدينتهم . وزرت خرائب عمان (فيلادلفيا) وهي على خمس ساعات ونصف من السلط في وادٍ على جانبي نهر الزرقا . وعلى خمس ساعات من عمان جنوباً خرائب ام الرصاص والقطيف . واتيت من السلط الى الكرك بعد سفر يومين ونصف يوم

« وللكرك شأن كبير وعند صاحبها نحو ١٢٠٠ بندقية يخيف بها قبائل العرب المجاورة وفيها مئتا بيت للنصارى من طائفة الروم ثلثهم يعيش عيشة البدو ولا يمتازون عن عرب البادية »

وكان قد اتى بكتاب توصية من احد وجهاء دمشق الى شيخ الكرك فتظاهر الشيخ باكرامه ولكنهُ اقام جميع العثرات في طريقه ليبتزَّ ما معهُ من المال القليل

ووصف ما لقيهُ من المشاق الى ان وصل الى قامة الشوبك في جبال الشراة وما شاهدهُ في وادي موسى من آثار البتراء او سالع ولم يكن احد من الاوربيين قد شاهد ذلك الوادي قبلهُ وعدَّ هناك اكثر من مئتين وعشرين مدفناً منقورة في الصخر الرملي الاحمر وبعضها مزدان بنقوش يونانية ومنها مدفن في شكل هيكل كبير جدًّا وهو ايضاً منقور في الصخر صحنهُ وحُجَرهُ ومحرابهُ وهو من اجمل الماثل كل اليونانية وهناك مدافن امامها مسلات كالمسلات المصرية ومشهد مدرَّج مستدير منقور في الصخر ايضاً وآثار قصر وهياكل كثيرة وعلى رأس الجبل قبر يقال انهُ قبر هرون

وقطع وادي العربة وسار في رفقة قافلة من التجار الى ان وصل الى القطر المصري · وكان عازماً ان يسير بطريق فزان ويسيح في غربي افريقية لكنهُ اجَّل ذلك وعزم على زيارة السودان بطريق اصوان ووادي حلفا وكتب الى اللجنة في ١٣ نوفمبر سنة ١٨١٢ يقول : — « اني عزمت على الصعود الى الصعيد حالما ينخفض النيل و يصير السفر ممكناً وساصعد برّاً الى ما فوق الشلال الاول والثاني والثالث الى ان اقرب من دنقلة · والسفر في القطر المصري الآن ليس محفوفاً بالمخاطر كما كان في القرن الماضي لان الباشا (محمد علي باشا) قد تسلَّط على البلاد كلها وعلاقتهُ حسنة مع امراء النوبة ولولا المماليك الذين استولوا على دنقلة واقاموا فيها لكنت احاول البلوغ اليها ولكني في الحالة الحاضرة سأبقى على خمس مراحل او ست مراحل منها وانتظر ان اقف على احوال السودانيين والنخاسة واوغل في البلاد شرقاً وغرباً على قدر الامكان واقضي في هذه السياحة خمسة اشهر ومتى عادت قافلة فزان في شهر يونيو المقبل اكون قد تأهبت للسفر معها للوقوف على احوال غرب افريقية »

وسيأتي الكلام على رحلتهِ الى السودان وما لقيهُ فيها من المشاق

وليس في كلام هذا الرحالة ما يشير اشارة صريحة الى احوال هذا القطر تلك السنة غير قولهِ ان محمد علي باشا قد تسلط الآن على الصعيد وهذا يطابق ما ذكرهُ الجبرتي وقولهِ قبل ذلك ان الفوز لم يكن حينئذٍ حليف الجنود المصرية في الحرب مع الوهابية وهذا يطابق ما ذكرهُ الجبرتي ايضاً · اما المظالم والمغارم التي ذكرها الجبرتي واسهب في وصفها فلا اشارة اليها في كلام بركهارت ولكن ما في كلام الجبرتي من التفصيل والتدقيق يدلُّ على انهُ كان يصف ما يراهُ يومياً ولو نظر اليهِ نظر المنتقد المحتاط لا نظر الصديق المغضي

هذه صورة مجملة لاحوال القطرين منذ مئة عام · وقد تقلبت عليهما الشؤون بعد ذلك فزال من القطر المصري اكثر ما شادهُ محمد علي فيهِ ولكن بقي من مآثرهِ المقناطر الخيرية وحب القطن والاهتمام بالتعليم · وما هو اهم من ذلك كلهِ وهو انحصار الولاية في بيت محمد بعد شخص واحد فيشعر ان البلاد بلادهُ وانهُ مسؤول عنها · واما القطر السوري فالامير بشير منهُ وتعاقب عليهِ الولاة واكثرهم يأتيهِ ليكتسب منهُ ما يوفي بهِ ديونهُ المتنة وما يساعدهُ على اكتساب منصب آخر · ولو لم يكن سكانهُ من نسل اعلى الامم همة وشهم اقداماً لامسى قفراً بلقعاً